الفصل التاسع

رسوم دار الخلافة

كان اللون الذى اتخذه الخلفاء فى القرن الرابع الهجرى شعاراً لهم السواد والبياض؛ فلما ركب الخليفة المقتدر فى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م لقتال مؤنس، وهى الركبة التى قُتل فيها وأشفق من عاقبتها إشفاقاً كبيراً، خرج من داره فى أكمل لباس وموكب، فكان عليه خفتان ديباج فضى وعمامة سوداء، وعلى كتفيه وصدره وظهره البردةُ النبوية، وهو متقلد بذى الفقار سيف الرسول، وحمائله أدم أحمر، وفى يده اليمنى الخاتم والقضيب؛ وسار بين يديه ولىُّ عهده ابنه أبو أحمد عبد الواحد، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء[1]. وكانت عادة خلفاء العباسيين فى القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قلنسوة محدّدة وقباء، وكلاهما أسود[2]، وكان هذا هو لباس وجوه رعيتهم أيضاً، وكان السواد هو كذلك

---

(١) عريب ص ١٧٦ — ١٧٧، والمنتظم لابن الجوزى ص ٣ ؛ ب ؛ وقد جاء فى شعر الشريف الرضى ما يدل على أن القضيب والبردة شعار الخلفاء، وأن البردة هى بردة النبى عليه السلام. انظر الديوان ص ٣١٣ ، ٥٤٣ من طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ. وقد اتخذ الأخشيد صاحب مصر الخفتان الفضى لباساً له، كما فعل الخلفاء، وأمر ألا يلبسه أحد سواه (المُغرب لابن سعيد ص ٣٠).

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦٩ ، ٣٧٧. وقد أراد سلاطين المماليك أن يقلدوا الخلفاء فى لباسهم القديم تقليداً كاملا، وكان لباسهم يتألف من:

١ — عمامة حرير لها عذبة مدلاة بين الكتفين.

٢ — جبة حرير سوداء واسعة الكمين، لا نقش عليها.

٣ — سيف عربى كان يحمل على طريقة البدو له حائل يعلّق بها على الكتف الأيمن، وهو مدلى على الجانب الأيسر؛ ويقال إنه سيف عمر بن الخطاب. (انظر Quatremère, Mamelouks, I, 138).

لون الخرقة التي كانت تحضر فيها الصدقة كل يوم عند صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين[١]. وكذلك كان علَم الخلافة أسود، عليه بالكتابة البيضاء: محمد رسول الله[٢]. أما خلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض، وهو شعار العلويين؛ وكانت ألويتهم بيضاء، وعليها أحياناً أهلّة من ذهب، في كلٍّ منها صورةُ سبع من الديباج الأحمر؛ وقد شبّهها أحد الشعراء بشقائق النعمان[٣]. وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يعقِدَ لواء نفسه على الرسم المعروف في ذلك، وأن يتسلم خاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه[٤]. وهذا تتويجٌ على الطريقة العربية البسيطة. أما أمراء الأطراف فقد كان التتويج بالنسبة لهم تتويجاً حقيقياً تجرى رسومه على الطريقة الوثنية؛ فكان يوضع على رأس الأمير تاجٌ مرصّع بالجواهر، ويلبس طَوْقاً وسوارَيْن من الذهب المنظوم بالجوهر عادة[٥]. وكان

(١) كانت هذه الخرقة تحوى مائتى درهم كل يوم، وكان ما فيها يفرق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات (كتاب الوزراء ص ١٩)؛ ويخبرنا أبو المحاسن أن زكاة ابن طولون كانت ألف دينار في كل يوم؛ وكثير من الأرقام التي يذكرها أبو المحاسن عن الطولونيين مجرد أرقام خيالية. على أن المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣١٦) يقول إن صدقات ابن طولون كانت ألفى دينار في كل شهر سوى ما يطرأ من نذر أو صدقة شكر. (المترجم)

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٤، وكان ولى العهد العباسى في أواخر القرن الرابع، وكذلك أمراء الأطراف، يسير بين يديهم علمان: لواء أبيض وراية سوداء؛ انظر تاريخ أبى المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥، وعريب ص ١٧٧، وابن الجوزى في المنتظم ص ٤٣ ب، ١١٢ ب، ١٢٥ ب.

(٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٦٠ — ٤٦١، وكتاب الديارات للشابشتى، ص ١٢٩ ا.

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٤.

(٥) لبس سيف الدولة أمير حلب تاجاً مرصعاً بالجوهر لما استقبل رسول ملك الروم في سنة ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م (يحيى بن سعيد ص ٩٤ ب). وكان طوق الذهب من علامة المحاربين عند المصريين القدماء (ZDMG, 41, S. 211)؛ وصار حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يخلع عند الملوك على القواد المنتصرين (عريب ص ٣٥)؛ ولما سُوِّر القائد الذى =

لباس الحاشية الرسمي في القرن الثالث الهجري أحمر اللون في العادة ؛ فيحكى أن المتوكل شرب يوماً في أحد قصوره ، وأمر بضرب دراهم ؛ وصُبغ منها الأحمر والأصفر ، ثم أمر الحاشية أن يُبدِّل كل واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته ؛ ثم أمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، وحوله الندماء والخدم وقوف[١] . أما في القرن الرابع فكان الغلمان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد و بعضهم ببياض[٢] .

وكان يُحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شمسة الخلافة (وتسمى في مصر مظلة) ؛ وقلّ ما نسمع عن الشمسة ببغداد ، ففي عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أمر الخليفة أن تُحمل بين يدى أحد الكبراء شمسة الخلافة ، فكان هذا تكريماً لم يسمح به من كان قبله من الخلفاء[٣] . وكانت المظلة في القاهرة علامة أبهة الخلافة ، وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة[٤] . وكان من علامات سيادة

= حزم القرامطة بسوارين من الذهب (عريب ص ٣) . ويظهر أن أول أمير خلع عليه الطوق والسواران هو الأخشيد أمير مصر ، وقد اتخذ الراضي هذه الخلع مع وزيره الفضل بن جعفر في عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م ؛ وقد زينت لذلك الأسواق والشوارع بأنواع الفرش والستور والبسط وأبواب الجامع ، وركب الأخشيد إلى الجامع العتيق ، وعليه خلع الراضي ، ومعه الوزير (المغرب لابن سعيد ص ١٧ — ١٨) ؛ أما خارويه ، سلف الأخشيد ، فلم يرسل له الخليفة إلا السيف والتاج والوشاح من غير طوق (كتاب الولاة للكندى ص ٢٤٠) ؛ وقد ظل الطوق والسوار مما يتحلى به القواد في عصر الفاطميين . وذلك كله رغم ما قضى به فقهاء الإسلام من تحريم لباس الذهب والتحلي به .

(١) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

(٢) كتاب العيون ص ٢٣٥ ب .

(٣) كتاب العيون ص ٢٢٦ ب .

(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٨٠ نقلا عن المسبّحى (المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) ؛ وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ، وترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى للقلقشندى ص ١٧٣ . ومن بقايا العادات البربرية التي استبقاها الفاطميون أنهم كانوا من تخريفهم يسيرون بالجيش ومعهم توابيت آبائهم (أبو المحاسن طبعة كانفورنيا ص ١٠) .

الخليفة ببغداد أن يُضرب على باب داره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلوات الخمس ، وكان لا يوقَف ذلك إلا أيام العزاء بدار الخلافه[١] . وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتخاذ الأمراء لها ولكن ذلك لم يَدُم ؛ ففى عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تُضرب الدبادب على باب عضد الدولة فى أوقات الصلوات الثلاث : الغداة والمغرب والعشاء ؛ وفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدولة بأن يُضرب الطبل أمام داره فى الصلوات الخمس ؛ وفى سنة ٤٣٦ هـ — ١٠٤٤ م ضُرب الطبل أمام دار الأمير خمساً ، كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماماً[٢] .

وظل لقب الخليفة بسيطاً كبساطة لباسه ، وهو اللقب المشهور : « أمير المؤمنين »[٣] ؛ على أنه منذ أيام الخليفة العباسى الثانى صار الخليفة يُسمى باسم فيه نسبة إلى الله ؛ وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له[٤] . ولا نعرف المثال الأول الذى كان أساساً لذلك . وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م طلب الخليفة الراضى من صديقه الصولى — الأديب ولاعب الشطرنج المشهور — أن يوجّه إليه بالأسماء التى تُنعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم . ويحكى لنا الصولى نفسه[٥] أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً ليختار منها ما يريد ، وأشار

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٧٦ ب ، ٢٠١ ب .

(٢) المنتظم ص ١١٤ أ ، ١٧٥ ب ، ١٩٧ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢١٥ .

(٣) على أنه إذا كان الخليفة المستكفى قد لقب نفسه فى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م بلقب إمام الحق وضرب ذلك على السكة فإنما كان ذلك ردّاً على مزاعم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة (انظر المنتظم ص ٧٣ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٨ طبعة ليدن) .

(٤) وكان ملوك السامانيين يسمون بعد موتهم بأسماء غير التى يسمون بها فى حياتهم (المقدسى ٣٣٧) .

(٥) الأوراق مخطوط باريس ص ٢ — ٥ ، ص ١٥ — ٢١ .

عليه أن يختار منها المرتضى بالله . وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتدأ من وقته يعمل أبياتاً ضادية قافيتها المرتضى ، على أن ينشده إياها ؛ فلما فرغ منها جاءه رسول الخليفة برقعة فيها : إن إبراهيم بن المهدى لما بويع أيام المقتدر بالخلافة أراد أن يكون له ولى عهد ، فأحضروا المنصور بن المهدى وسموه المرتضى ، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى ، ولم يتم له أمره ؛ وقد اخترت الراضى بالله . وقد حفظ لنا الصولى فى تاريخه القصيدة الأولى التى ألفها ، ولم يُقدّر لها أن تُنشد . وقد أمره الخليفة أن يعملها قصيدة أخرى على قافية الراضى ، فعملها[1] .

وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) أول من أخرج فى ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية ، اختراعاً جعله قُرْبَةً ، فصار سنّة ؛ ومضى فى ذلك حتى خرق العرف والعادة . فكتب عن الخليفة بالخدمة ، « وتصرف فى ذلك حتى قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبى الحسن بن أبى الشوارب القاضى فى ترجمة رقعة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان[2] » . وكان الأمراء وكبارُ أصحاب المناصب والعمال ينهالكون جميعاً على الألقاب تهالكاً شديداً ، وكانوا جميعاً يُلقّبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولى الدولة ، وعماد الدولة ، ومُعين الدولة ، وعزّ الدولة ، ونحو ذلك[3] . يقول البيرونى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ

---

(١) هذه القصيدة موجودة فى كتاب الأوراق ص ١٥ — ٢١ .

(٢) كتاب الوزراء لهلال الصابئ (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ص ١٥٢ .

(٣) إن أقدم هذه الألقاب — التى لا تزال تستعمل إلى اليوم مثلا لقبا الوزير بخارس — هو لقب ولىّ الدولة الذى لُقّب به الوزير أبو القاسم (المتوفى سنة ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م) ؛ وفى عهد الحاكم بأمر الله فى مصر لقب أحد العمال بأمين الدولة ؛ انظر الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٢ والصفحات التالية ، ويحيى بن سعيد ص ١١٣ ا — ب .

— ١٠٥٥ م) : « و بنو العباس لما لقّبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسوّوا فيها بين المُوالى والمعادى ، ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم[1] » . وفى النصف الثانى من القرن الرابع احتيج إلى التفريق بين أصحاب الألقاب فثُنّى لبعضهم التلقيب ، فكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) يُلَقّب بتاج الملة ؛ وأخيراً ثُلّث التلقيب ، فلقّب بهاء الدولة ضياء الملة وغيات الأمة . ثم ذاعت ألقاب الدولة فى كل مكان عند الفاطميين ، وعند السامانيين فى تلقيب قواد الجيوش دون تلقيب أنفسهم ، لأنهم لم يرغبوا فيها ، واكتفوا بالتكنية ، وعند بغراخان التركى ؛ فإنه لما خرج فى سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م لقّب نفسه بشهاب الدولة ؛ ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجرؤ على مقام الألوهية . وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم بأسماء مما ينبغى أن يطلق على الله مثل : الأوحد ، وكافى الكفاة ، وأوحد الكفاة ؛ وجاوز نفر هذا الحد ، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء ؛ ولذلك يقول البيرونى بعد ذكره ما تقدم : « فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم[2] » . وأخيراً يُقال إن الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣٠ م) لقب محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بأكبر لقب ظل له شأن عند الأجيال التالية وهو لقب السلطان ، وكان محمود أول من لقب به[3] . ولكن أمير بغداد طلب فى سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م أن يُلقّب بالسلطان المعظم مالك الأمم ، فقال القاضى الماوردى ، رسول الخليفة إلى الأمير ، إن هذا لا يمكن ، لأن السلطان

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٢ .

(٢) الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ ، وكتاب الأوائل لعلى دده مخطوط رقم ٩٢٧٢ بمكتبة برلين ص ١٥٥ نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطى .

المعظم هو الخليفة ، وكذلك مالك الأمم ؛ فعدل الأمير إلى لقب مالك الدولة ، فأجازه الماوردى[١] . وفى سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م زيد فى ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوثنى القديم ؛ فنفر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروه فى المساجد بالآجرّ ، ووقعت فتنة ؛ ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يُعتبَر فيها القصد والنية ، وأنّ ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه ما يوجب النكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق ، وأن هذا اللقب جائز ، كما جاز أن يُقال : كافى الكفاة ، وقاضى القضاة ، فإن كثيرين من أهل الجد والتدقيق لم يرضوا به ، وذكروا أن القاضى الماوردى منع من جوازه ، حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة جلالة الدولة بعد أن كان مختصًّا به[٢] . ولم يرض هلال الصابى عن تلقيب القادر بالله ابنه وولى عهده بالغالب بالله فى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م ؛ وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التى كانت مكتوبة على قصر الحمراء : لا غالب إلا الله وحده لا شريك له[٣] .

ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للألقاب التى يمنحها الخليفة ، وكان يُدفع له من أجلها الشىء الكثير ؛ وكان ذلك أكبر أبواب دخله فى أواخر القرن الرابع الهجرى ؛ فبعد أن لُقّب أمير بغداد بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٨٤ ب .

(٢) المنتظم ص ١٩٢ ب — ١٩٣ ا ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٣٠٥ ؛ وكان الماوردى من خواص جلال الدولة ، فلما أفتى بالمنع انقطع عنه ؛ فطلبه جلال الدولة يوما ، فمضى إليه على وجل وخوف ، فقال له الأمير : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتنى لما بينى وبينك ؛ وما حملك على ذلك إلا الدين ، فقرّبك ذلك منى ، وزاد محلك عندى .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ، ويذهب الصولى (الأوراق ص ٣) إلى أن الألقاب مكروهة منهى عنها فى كتاب الله وعلى لسان رسوله عليه السلام ، قال الله عز وجل : ولا تنابزوا بالألقاب .

بعث للخليفة ألطافاً كثيرة ؛ وقد أرسلها قبل التلقيب ، وإن كان قد أحب أن يلقب أولا ثم يرسلها . وكانت هذه الهدايا ألفي دينار ؛ وثلاثين ألف درهم ، وعشرة أثواب خز ، ومائة ثوب ديباج مرتفعة ، ومائة أخرى دونها ، وعشرين مناً عوداً ، وعشرة أمناء كافوراً ، وألف مثقال عنبراً ، وألف مثقال مسكا ، وثلاثمائة مبخر صيني ، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية[1] .

وفي هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب في حضرة الخلفاء حتى صارت على رسم بقي في جوهره مستمراً طول العصور . كان الخليفة المأمون حوالى سنة ٢٠٠ هـ يخاطب كما يخاطب أي رجل آخر بلفظ أنت[2] . وكذلك كان يخاطب الخليفة المقتدر عادة حوالى عام ٣٠٠ هـ[3] ، وإن كانت تستعمل إذ ذاك طريقة الخطاب بضمير الغائب إلى جانب ذلك ، فكان يقال أمير المؤمنين أمر بكيت وكيت . وفي أواخر القرن الثالث لم يكن من السائغ أن يُخاطَب أيُّ رجل بمثل هذه البساطة ، وفي أوائل القرن الرابع اتى الخليفةُ المتقي الأخشيدَ صاحب مصر بالرقة ، وقد حمل الأخشيد الهدايا ، وأظهر الخدمة والأدب ؛ وخاطب وزيرُ المتقي الأخشيدَ باسمه ، فأمره الخليفة بأن يكنّيه تأكيداً لقدره واحتراماً له[4] . وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان الخليفة المعتضد لشدة هيبته إذا خاطب صديقه الطبيب ثابت بن سنان في الملأ سمّاه ، وإذا كان في الخلوات كنّاه[5] . وكان المأمون يمد يده مسلماً على البطريق ديونيسيوس ،

---

(١) المنتظم ص ١٨٤ ب من مخطوط برلين .

(٢) كتاب بغداد لطيفور ص ٩٤ ومواضع كثيرة .

(٣) انظر مثلا غريب ص ١٧٦ ، وكتاب الوزراء ص ٢٢٩ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ .

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢١٦ .

وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه[١] . ولما فارق مؤنس القائد الخليفة في أوائل القرن الرابع الهجرى قبّل يده[٢] ؛ وكان من خاص التكريم في ذلك العهد أن يقبل الإنسان رجل من هو فوقه[٣] وكتف من يساويه[٤] . وكذلك سلّم الجوارى من قبل على تليماكوس (Telemachos) بأن قبّلن كتفه وأعلى رأسه[٥] . وقد دعا الخليفة الراضى الأمير بجكم مرة ، فقبل هذا القائد فخذ الراضى ويده[٦] .

وكان الأولون من مسلمى العرب يرون في تقبيل الأرض أمام المخلوقين اجتراء على حقوق الله ؛ ولما قدم على المقتدر بالله رسل ملك الروم أعفاهم من تقبيل البساط لئلا يُطالَب المسلمون بمثل هذا في بوزنطة[٧] . وفي حكاية ترجع إلى أوائل القرن الرابع أن رجلا صالحا كتب كتاباً لغلام من غلمان نازوك يستعطف فيه سيده ، بعد أن طرده ؛ فاستدعى نازوك ذلك الرجل ، فحضر مرتاعا ، وأهوى ليقبل الأرض ؛ فقال له نازوك ، وكان صاحب الشرطة : « مَهْ ، عافاك الله ، لا تفعل ، هذه من سنن الجبّارين ، ما نريد نحن هذا[٨] » . على أنه حوالى عام ٣٣٠ هـ لما لقى الأخشيدُ الخليفة المتقى في الرقة ترجّل عن بعد ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته وجعبته بين يدى الخليفة على سبيل الخدمة ، وقبّل

---

(١) Michael Syrus, S. 517.

(٢) الهمذانى مخطوط باريس ص ١٠٢ ا (؟) .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٠٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٧ ، ١٢٢ .

(٥) Odyssee, XVII, 35 ، وكذلك فعل لأوديسيوس رعاة الخنازير والبقر (XXI, 224) .

(٦) الأوراق للصولى ص ٥٤ .

(٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة سلمون ص ٥٦ ، ويحكي مسكويه (ج ٥ ص ١٢٤) ذلك باختصار فيقول : فلما دخلا (الرسولان) قبّلا الأرض .

(٨) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٤

الأرض سراراً ، وتقدم فقبل يده ، ثم صاح به محمد بن خاقان : اركب يا محمد ، ثم صاح : اركب يا أبا بكر ، فقبل إن المتقى قال لابن خاقان : كنّه ، فكناه للوقت ؛ ثم كان الأخشيد يقف بين يديه على سيفه ، وإذا ركب حجبه ، وجعل مقرعته على كتفه لأنه لم يخدم خليفة قط غيره ، وافتخر بذلك ؛ وقد أعجب الخليفة من فعله ، وقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة ، فاستخلف لك أونوجور ، وقيل إنه كناه أبا القاسم ، فقبّل الأرض سراراً ، وأهدى إليه الأخشيد هدية أخرى على ما فعله بابنه أونوجور وتكنيته له[1] » ؛ وفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م تم فى دار الخلافة تتويج عضد الدولة على أفخم صورة : جلس الخليفة الطائع على سرير الخلافة فى صدر صحن السلام ، وحوله من خدمه الخواص نحو مائة بالمناطق والسيوف ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفيه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلّد بسيف ، ووقف الأشراف من الجانبين ؛ ودخل الأتراك والديلم ، ولم يكن مع أحد منهم حديد ؛ فلما وصل عضد الدولة أذن له الخليفة ، فدخل ؛ فلما وقع عليه طرفُ الخليفة قبّل الأرض بين يديه ، فارتاع أحد القواد لما شاهد ، وقال بالفارسية : ما هذا أيها الملك ، أهو الله عز وجل ! فالتفت عضد الدولة إلى من يفهمه أن هذا خليفة الله فى الأرض ؛ ثم استمر عضد الدولة يمشى ، ويقبل الأرض تسع مرات ، والتفت الطائع إلى خادمه ، وقال له : استدنه ، فصعد عضد الدولة وقبّل الأرضَ دفعتين ، فقال له الطائع : أَدْنُ إلىّ أَدْنُ إلىّ ، فدنا ، واكبّ يقبل رجلهُ وثنى الطائع يمينه عليه . وكان بين يديه سرير ، ومما يلى الجانب الأيمن الكرسى ، فقال له : إجلس ، مرتين ، فلم يفعل ، فقال له : أقسمتُ لتجلسنّ ، فقبّل الكرسى وجلس ، وبعد ملاطفة قال له الخليفة : قد

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ .

رأيتُ أن أفوّض إليك ما وكل الله تعالى إليّ من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى وما وراء بابى ، فتولّ ذلك مستجيراً بالله تعالى ، وقال له عضد الدولة : يعينني الله عزّ وجل على طاعة مولانا وخدمته ؛ ثم أمر الخليفة بأن تُفاض عليه الخِلَع ، ويُتوّج ، فنهض عضد الدولة إلى الرواق ، فألبس الخلع وخرج ، وأمره الخليفة بالجلوس ، ثم عُقدت له الألوية ، وقُرئ كتابه ؛ ثم نصحه الخليفة بما أراد ، وقلّده سيفاً ، وخرج ؛ وبعد ثلاثة أيام بعث الخليفة إليه هدية فيها غلالة قصب وصينية ذهب وحرددادى بلور : « فيه شراب ناقص كأنه قد شُرب بعضه ، وعلى فم الحرددادى خرقة حرير مشدودة مختومة[1] » .

وكان إجلال الخليفة فى مصر الفاطمية أعظم مما تقدم ، ففى سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م قُرئ سجل أحد القضاة فى الجامع الأزهر ، « وهو قائم على قدميه ، فكلما مرّ ذكر المعزّ أو أحدٍ من أهله أومأ بالسجود »[2] . ولما أسند القضاء أيضاً فى عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م إلى مالك بن سعيد الفارقى قُرئ سجلّه بالقصر ، وهو قائم على رجليه ، وكان القاضى كلما مر ذكر الحاكم فى السجل قبّل الأرض[3] ، وقد أمر الناس فى الحرمين فى إحدى السنين أن يقوموا عند ذكر هذا الخليفة ، وكان إذا ذُكر فى الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام الناس وسجدوا[4] . ولكن هذا الخليفة فى آخر أمره أظهر الزهد فمنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ، ومنع من مخاطبته مولانا ؛

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٥ ب — ١١٦ ا .

(٢) ملحق أخبار الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨٩

(٣) نفس المصدر ص ٦٠٤ نقلا عن المسبحى .

(٤) المنتظم ص ١٥٠ ب

ولكن هذه الرسوم عادت فى زمن خلفه إلى ما كانت عليه من قبل[١] .
ولما احتضر الحاكم وصّى أبا محمد الحسن بن عمّار أحد شيوخ كتامة ، ثم جعل له الوساطة ، وخلع عليه ، وكان الناس يذهبون إلى قصره ، فمنهم من يومئ بتقبيل الأرض ، ولا يقبل يده سوى أناس بأعيانهم ، وشرّف بعض الناس بتقبيل ركابه ، وكان أجل الناس من يقبل ركبته[٢] .

وقد ضرب أحد رجال الحاشية فى بخارى حوالى هذا العصر أحسن مثل للأدب وحسن الإصغاء للملك والإقبال عليه ؛ فبينما كان عنده يحادثه فى بعض مهماته لَسَعَتْهُ عقربٌ فى إحدى رجليه عدة لسعات ، فلم يتحرك ، ولم يظهر عليه أثر ذلك ؛ فلما عاد إلى منزله نزع خُفه ، وأخرج العقرب منها[٣] . ونظر الأخشيد إلى كافور يوما ، وقد جيء بفيل وزرافة ، فمال جميع العبيد والخدم بأبصارهم للفرجة ، فلم تبرح عينه من عين الأخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه ، فيكون مشتغلا عنه[٤] .

وقد تكلم المسعودى فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م عن هذا الأدب فى حضرة الملوك ، فقص علينا أن أبا بكر المذلى حضر مجلس السفّاح ، وكان السفّاح مقبلا عليه بحادثه بحديث لأنوشروان فى بعض حروبه ؛ فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعاً من الآجرّ من أعلى السطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر لوقعها ، والمذلى شاخص نحو السفاح ، لم يتغير من شدة ميل ذهنه وانشغال فكره بمحادثة الأمير ،

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٢ ب — ١٢٣ أ ، ١٣٢ ب — ١٣٣ أ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٦ .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦ ، ويحكى مثل هذا عن الحجاج وعبد الملك بن مروان ؛ انظر محاضرات الأدباء طبعة بولاق ج ١ ص ١١٢ .
(٤) المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .

حتى لم يصبح فيه لحادثٍ مجالٌ[1] . ويحدثنا أيضاً عن أحد سُمّراء شيرويه بن أبرويز أنه كان يساير الملك ، ويستمع حديثه مُصغياً إليه بجوارحه كلها ، حتى ترك الشطر إلى موطئ حافر دابته ، فزلت إحدى قوائمها فمالت بالرجل إلى النهر ، ووقع في الماء ، فسُرّ الملك بذلك ، لأنه لم يكن يظنه بهذا المقدار من الإقبال عليه ، « فحشا فاه جوهراً ودُرّا ، واستبطنه ، حتى غلب على أكثر أمره[2] » .

وكان الأمراء في مخاطباتهم الرسمية وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة ، أمير المؤمنين ، بكل احترام ، ويعبّرون في كلامهم عنه بمولانا ، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع « المولى[3] » ؛ وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو : « كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور والله على ذلك محمود مشكور[4] » ، وكان كل شيء يُنسب إلى أمره[5] .

وفي سنة ٣٧٨ هـ أهدى الصاحب بن عبّاد إلى فخر الدولة في أول المحرم ديناراً وَزْنُهُ ألفُ مثقال ، وكان على أحد جانبيه أبياتٌ من الشعر ، وعلى الجانب الآخر سورةُ الإخلاص ولقبُ الخليفة الطائع لله ولقبُ فخر الدولة واسمُ جرجان ، لأنه

---

(١) يحكى شيء يشبه هذا عن أبي القاسم السكري في حضرة أمير خراسان ، محاضرات الأدباء ج ١ ص ١١٧ .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٥ .

(٣) ولم يكن الواحد منهم يسمى نفسه عبدا ، كما فعل تكين صاحب مصر ، حتى عام ٣٠٠ هـ — كتاب العيون ص ١٢٥ ب (؟) .

(٤) انظر مثلا رسائل الصابي مخطوط رقم ٦٦ ? بمكتبة ليدن ص ٧٢ ب ، ٩٠ ب ، ١٢٩ أ .

(٥) انظر مثلا نفس المصدر ص ١٢٥ أ : « وأنهينا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين ، وخرج إلينا أمره لا زال عالياً وسلطانه سامياً ... » ، وص ٢٠٣ أ : « ولم يزل أكرمكم الله مولانا أمير المؤمنين يتطلع أخباركم ... ويرى فيكم ما يراه في كافة المسلمين من حياطة حريمكم وصيانة حيمكم ... ويطوينا أعزه الله ذلك من نيته ... ويهيب بنا إلى الذب عن دياركم ... »

ضرب فيها ؛ هذا مع أن الإهداء كان بالرئ ، فى مكان طهران الحالية ، مع بعدها عن دار الخلافة[١] .

ولكن أمير المؤمنين كان عند التقائه بالأمراء يرى ضعفه المتزايد ونقصان منزلته ؛ ومن ذلك أن بجكم القائد التركى كان من عادته فى داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به ؛ وعلم الخليفة الراضى بذلك ، فاستعمل معه ما يُعمل له فى منزله ؛ فكان إذا حُمل شىء وُضع بين يدى الراضى أولاً ، فأكل منه ؛ ثم يوضع بين يدى بجكم ، وجرى ذلك فى كل ما يوضع بين يديه ، وكان بجكم يستعفى الراضى من هذا فلا يعفيه[٢]

(وقد تعرض بلاط الخلافة لأكبر ما أنقص هيبته فى عهد المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦ م) لأنه وقع فى سلطان امرأة فارسية مستبدة تسمى حُسْن ، « والتفّ إلى حسن نفرٌ ممن كانوا معها على الأصول القبيحة ... وكانت تتولى عرض الغلمان والحجّاب فى قصر الخليفة فى مجلس يقال له الحودان ، لم يكن يصل إليه أحد إلا وزير أو صاحب ، فانحرفت القلوب بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من لم يرَها ، وكان كل من وصل إلى المستكفى أجلسه بين يديه ... » ؛ وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتصلح قلبه ، فجعلت الخليفة يدعوه ويكرمه بما لم يسمح به أحد من الخلفاء قبله ؛ فكان يأكل معه على مائدة واحدة ، ويقدم له دابّة فى الرواق التسعينى ، وهو موضع لم يركب منه خليفة قط ؛ وأمر أن تحمل

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٥٤ .

بين يديه شمسةُ الخلافة وأن يسير الخدم معه إلى داره[١] ؛ وكان من سوء حظ الخلفاء أن الديلم الذين ملكوا بغداد كانوا شيعة ، فازداد أمر الخلافة إدباراً ، وذهبت حرمةُ الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأمر شيء ؛ لأن الديلم « كانوا يتشيعون ويُغالون في التشيُّع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من من مستحقِّيها ، فلم يكن عندهم باعثٌ دينى على الطاعة[٢] » . وقد كان ثوار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ؛ أما الآن ، بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يُعامَل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تُراعى له فيها حرمةٌ ولا يعرف له فيها قدر ففى سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م ذهب الأمير معز الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم ؛ فلما جلس المستكفى على سريره ، ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة ، فقبّل الأرض على رسمه ، ثم قبّل يد المستكفى ووقف بين يديه يحدثه ؛ ثم جلس على كرسى ، فتقدم نفسان من الديلم ومدّا أيديهما إلى المستكفى ، وعلا صوتهما بالفارسية ؛ فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما ، فجذباه بها وطرحاه إلى الأرض ، ووضعا عمامته فى عنقه ، وجرّاه ؛ فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات ، وافتتحت دار السلطان ، وضُربت الأبواق ، وساق الديلميان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث سُملت عيناه[٣] .

وفى ٣٦٤ هـ دخل عضد الدولة بغداد ، فكان من حسن سياسته أنه سعى حتى ردّ الخليفة بعد أن أخذه الأتراك معهم كارهاً ؛ وخرج لقائه فى الماء ،

---

(١) كتاب العيون ص ٢٢٤ ا — ٢٢٦ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٩ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

ومعه حشدٌ عظيم من أهل بغداد، وسار معه حتى أنزله بدار الخلافة[١]؛ ولكن عضد الدولة طلب من الخليفة فيما بعد، لما رجع إلى بغداد عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م، أن يخرج لقائه إلى جسر النهروان، «ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقى أحد من الأمراء[٢]».

وكانت حاشية دار الخلافة ونفقاتهم فى عهد الخليفة المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م كما يلى:

١ — أمراء بيت الخلافة.

٢ — أصحاب النوبة من الرجّالة، وأرزاقهم فى كل يوم ألف دينار، منها سبعمائة دينار للبيضان، وهم البوّابون، وثلثمائة للسودان، وأكثرهم مماليك الخلفاء[٣]. ومن رسمهم أن ينوبوا فى مصافّ باب الخاصة وحوالى القصر. ولهم وظيفة خبز يُمَيِّزون بها لقلة أرزاقهم[٤].

٣ — الغلمان المُتَقَّمون، وهم فى الغالب مماليك الخلفاء؛ ومنهم يُختار الحجابُ، وعِدّتهم خمسة وعشرون، وخلفاء الحجاب، وكانوا نحو خمسمائة[٥]. ولما قتل المقتدر كان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذُبح أيضاً[٦]. وفى سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م أنشئ لأول مرة منصبُ حاجب الحجاب[٧].

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧.

(٢) المنتظم ص ١١٧ ا — ب.

(٣) وفى مصدر آخر لا ينطبق ما فيه على حقيقة الواقع تماماً أن عدد هؤلاء الغلمان السود غير الخدم أربعة آلاف (تاريخ بغداد طبعة Salmon ص ١،٥).

(٤) انظر فى هذه الأسماء كلها كتاب الوزراء ص ص ١١ إلى ص ٢١.

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١، وتاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩، ٥١.

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩.

(٧) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٩٥.

٤ — المختارون ، وهم حرس مستخلصون للموكب وملازمة الدار والدخول أوقات جلوس الخليفة ، والمقام من أول النهار إلى آخره . وكان جند كل قائد ببغداد بما فيهم مماليكه المسلحون يؤلفون وحدة قائمة بذاتها ؛ فاختار الخليفة من كل قيادة من عُرف بالشهامة والشجاعة ، وسُمّوا بأسماء قوادهم ، فقيل اليأنسية (وذلك نسبة ليأنس) ، والمُفلحية والمسرورية وهكذا . على أنه كان للمعتضد مماليك يقيمون في القصر والحُجَر تحت مراعاة الخدم والأستاذين وسمّاهم الحُجَرية ؛ وهم يُختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي ويسمون أيضاً عسكر الخاصة . وكان لمحارويه بمصر قوم معروفون بالشجاعة وشدة البأس اتخذهم حرساً له ، وسماهم المختارة ؛ فكانوا يقاتلون أمام جنده ، وإذا ركب مشوا خلفه[1] .

٥ — أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجّمين والفنجاميين والفرانقيين والأنصار والحرس وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخرّقين والمضحكين والطبّالين والسقايين والطبّاخين والخبازين وخزنة السروج وعمال الاصطبلات الخمسة — خامسها للإبل — وأصحاب الصيد والملّاحين في الطيارات ، وخَدَمَة المشاعل والأطباء .

٦ — الحُرَم ، وأرزاقهن في اليوم مائة دينار ؛ وليس عندنا معرفة دقيقة بعددهن . وقد ذكر الخوارزمي ما زعمه البعض من أن المتوكل كان له اثنا عشر ألف سرية[2] ، ويقول المسعودي إنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفي أحد المخطوطات أربعمائة[3] ؛ وكان على رأس نساء القصر حوالي عام ٣٠٠ هـ

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٣٧ .

(٣) المروج للمسعودي ج ٧ ص ٢٧٦ .

قهرمانتان ، إحداها للخليفة والأخرى للسيدة والدته ؛ وكان يسلم للأولى كبارُ المتقلين ليُحبَسُوا عندها مكرّمين حبساً هيّناً ؛ فمثلا وُكّل بابن الفرات حوالى ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م عند زيدان القهرمانة[١] ، كما سُلِّم إليها الأميرُ الحسين بن حمدان ، والوزير على بن عيسى سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م[٢] .

وكان اتخاذ الخليفة نساءه من غير مبالاة بأصلهن ، وإن كان معظمهن من جوارى الترك والروم ، سبباً فى إيجاد كثير من الاضطراب فى البلاط وفى المناصب الإدارية العليا ؛ فكانت كل سيدة تحابى من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترعهم ما استطاعت ؛ ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدى كتب إلى عامل جرش فى إشخاص الغطريف بن عطاء أخى الخيزران أم موسى وهارون ابنيه ؛ وكان الغطريف غلاماً لرجل من أهل جرش ، فأعتقه ، وكان يؤاجر نفسه بنظر كروم ؛ فحباه العامل وكساه ، وحمله إلى المهدى ، فرفع منزلته ، ثم ولاه على اليمن[٣] . وكان للمقتدر خالٌ رومى يسمى غريب ، وكان له نفوذ كبير وكان يُخَاطَب بالإمرة[٤] . وفى سنة ٣٠١ هـ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمانة السيدة أم الخليفة أن تسعى فى إسناد نقابة بنى هاشم الطالبيين والعباسيين لأخيها ؛ فضجّ الهاشميون حتى ردّوا النقابة إلى ابن النقيب السابق[٥] . وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أمُّ الخليفة ؛ وقد ذاق المتصلون بالخليفة

(١) عريب ص ١٠٩ ، كتاب الوزراء ص ١٠٥ .

(٢) كتاب العيون ص ١٨٥ أ ، ١٨٦ أ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٨١ من الطبعة الأوربية .

(٤) عريب ص ٤٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٧ .

وبالّ ذلك ، حتى إن الخليفة كان يُنتخب أحيانا لأنه لا أمّ له رجاء أن تستقيم الأمور معه[١] .

وكان فى دار المقتدر حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أحد عشر ألفاً من الخدم الخصيان[٢] ، وفى رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب[٣] ، وفى مصدر قديم موثوق به أن خدم المتوكل وحاشيته كانوا سبعمائة[٤] .

وقد جرى أباطرة الدولة الرومانية فى العصر المتأخر على عادة الفرس القدماء ، فجمعوا حولهم جماعة يدعونهم إلى الطعام والشراب ، وسموهم « أصدقاء الإمبراطور » ؛ وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد ، فإنه أمر بأن تُثبت له أسماء من يصلح لمنادمته من أهل الأدب[٥] . وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقوّاد وممن جالس الخلفاء . وكذلك حاول القائد بجكم أن ينتفع بندماء الخليفة الراضى ، فلم يجد من ينفعه إلا الطبيب سنان بن ثابت[٦] . وكان الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ — ٨٩٢ م) مع ندمائه مجالسات ومذكرات قد دُوّنت فى أنواع من الأدب ، فيها مدح النديم وذكر فضائله وذمّ التفرد بشربّ النبيذ وما قيل فى ذلك[٧] ، وكان للندماء أرزاق[٨] .

(١) نفس المصدر ص ١٨١ ، وكتاب العيون ص ١٣١ ب بالترقيم العربى (؟) ، وقد توفيت والدة القاهر شاباه (كتاب العيون ص ٦٦ أ) .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩ ، نقلا عن القاضى التنوخى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٨ .

(٣) تاريخ بغداد ص ٥١ .

(٤) كتاب الديارات الشابشتى ص ٦٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢٩ ب .

(٦) مسكويه ج ٢ ص ٢٦ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٢ ، ويحكى لنا الشابشتى (ص ٨٠ أ) أن المأمون أراد يوماً أن [illegible] مع ندمائه ، وأمر بإحضار اللحوم وآلة الطبيخ وطلب من الندماء أن يطبخ كل واحد منهم قدراً ، وطبخ هو أيضاً قدراً .

(٨) الفهرست لابن النديم ص ٦٩ .

وقد وصف لنا الصولى أول جلسة للخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٦ هـ = ٩٣٦ — ٩٤٠ م) مع أصحابه : كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص ، وكانوا فى أول جلسة أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره ؛ فكان على يمينه قريبا إليه إسحاق بن المعتمد أحد الأمراء ، ويليه الصولى ، الأديب ولاعب الشطرنج المشهور ، ثم أحمد بن محمد المروضى الذى كان مرسوما بتأديب أبى إسحاق المتقى أمير المؤمنين ، ثم يليه محمد بن عبد الله بن حمدون ، أحد أبناء الأشراف المتصلين بالبلاط ؛ وكان على يساره ثلاثة من آل المنجم وهم من أدباء الحاشية ، واثنان من بنى البريدى العمال المشهورين ، وكان يعلّمان الخليفة الخط . وقد افتُتح المجلسُ بإنشاد قصائد بمناسبة تقليد الخلافة ، ثم تكلم الخليفة ، فشكا ثقلَ العبء الذى ألقاه عليه هذا المنصبُ بسبب قلّة الأموال وتغيُّر الأحوال وكَلَب الجند وخراب الدنيا ؛ وذكر أنه يستصحبه من الغم والأسف والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور ، ورجا الله أن يعيله بجميل نيته . وكان مما قاله : والله لقد جاءنى هذا الأمر ، ولا شرعتُ فيه ، ولا جئتُه ، ولا عُلم إليه ذلك منى فى سر ولا علانية ، ثم تحدث عن إحنات القاهر له وخوفه من قتله إياه فى ليله ونهاره ، إلى أن قال : أليس بابن المعتضد وأخ المقتدر وعمّ لنا ؟ هذا والله عار وعيب لا يُزال ، فقال له الصولى : قد أزال الله عن سيدنا كلَّ عيب ؛ وله فى رسول الله أسوة حسنة ؛ هذا عمه أبو لهب أنزل الله فيه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ، فما لحقه عاره . يقول الصولى : « فكنا بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب ، وكان هو لا يشرب ، قد ترك النبيذ جملة » ؛ وكان لكل من الفريقين الذين على يمينه وعلى يساره فى أول جلسة نوبة خاصة به ؛ ويظهر أن بعض النوبة كانوا يحضرون النوبة الأخرى أحيانا[1] . ويقول الصولى : إن مما امتاز به

(١) الأوراق للصولى ص ١١ — ٢٦ ، ١٤٣ .

الراضى فى مجالس منادماته أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدى الندماء الصوانى عليها الصينيات بالطبوخ ، والمغاسل ، وكيزان الماء ، ليشرب كل واحد منهم ما يريد . « ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد[1] ، وبالجماعة فى وقت من الدهر » . وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرطبة واليابسة ، فينالوا منها كما ينالون فى بيوتهم ؛ بل يحكى الصولى أن الندماء كانوا يتبارون فى الشرب بين يديه ، فيُسَرّ بذلك ، ويثيب عليه ، ويقول : مَن زاد فى شربه فإنما فعل ذلك سروراً بنا ونشاطاً لمجلسنا ، وكان إذا شرب أحد المتبارين كأساً قبل صاحبه رفعها ليراها الراضى ؛ وقد فعل اثنان منهما ذلك مراراً إلى أن ضجر الراضى فقال : كأنها قوارير بول تدفع بين يدى طبيب[2] .

وكان لكل سلطان من السلاطين أمارةٌ لندمائه ، إذا أراد نهوضهم ، فكان أردشير إذا تمطّى قام سُمّارُه ؛ وكان يزدَجرد يقول : شَبْ شُدْ (ومعناها تقدّم الليل) ؛ وكان سابور يقول : حسبك يا إنسان ! وكان عمر يقول : قامت الصلاة ؛ وعبد الملك : إذا شئتم ؛ والرشيد : سبحان الله ؛ وكان الواثق يمسُّ عارضيه[3] .

وكانت نفقات دار الخلافة عظيمةً جداً ؛ فكانت نفقات المطابخ والمخابز عشرة آلاف دينار فى الشهر . وكان يطلق فى كلّ شهر فى جملة نفقات المطابخ لثمن المسك وحده ثلثمائة دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يطرح له إلا اليسير فى الخشكنانج ؛ وكان يُصرف للـقيّانين مائة وعشرون

---

(١) فقد كان لكل نديم من ندماء الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٣ هـ = ٨٤١ — ٨٤٧ م) نوبة لا يحضر إلا فيها — الأغانى ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢١ .

ديناراً فى الشهر ، ومائتا دينار لثمن الشمع والزيت ، وثلاثون ديناراً للأدوية ، وثلاثة آلاف دينار لنفقات خزائن الكسوة والخِلَع والطيب وعمل الزهر والحمّام ونفقات خزائن السلاح وما يُرمّ من الجواشن والدروع ويتّخذ من النشاب والأعلام ونفقات خزانة السروج والفرش[1] .

وكانت نفقات دار الحُرم التى بناها خمارويه عظيمة جداً ، وكان يفضل من حاجات من فيها الشىء الكثير للخدم والطباخين . واشتهر بيعهم لذلك ، « وكان شيئا موجوداً فى كل وقت لكثرته واتساعه ، بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله »[2] .

ولما قعد القاهر فى الخلافة أظهر من الجد والاختصار والقناعة ما هابه به الناس ، فلما عُرِضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفاكهة التى كانت توضع بين أيدى الخلفاء فى كل يوم استكثرها ؛ وكانت تبتاع بثلاثين ديناراً ، فأمر بأن يُقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطعام على اثنى عشر لوناً . وكان يقدّم له فى كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه[3] .

وفى ذلك العصر كانت أيامُ اليسر قد أقبلت ؛ ففى عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م أنقص عدد الحجّاب من خمسمائة إلى ستين[1] ؛ وفى سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م استولى معز الدولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة ، وأقام له لنفقته كل يوم

(١) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٣) عريب ص ١٨٣ .

ألفى درهم[1]، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه[2]. وبعد ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الألفى درهم وعوضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتى ألف دينار فى السنة؛ ثم نقص ارتفاعها على مر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار فى السنة[3].

ثم جرت العادة منذ عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م أن تنهب دار الخليفة بعد موته أو خلعه حتى لا يبقى فيها شىء[4]. وفى سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م لما خلع الطائع حُوّل ما كان فى دار الخلافة من المال والثياب والأوانى والفرش والآلات والرخام والخشب والساج والتماثيل والأبواب والشبابيك والرصاص حتى خلت دار الخلافة[5]. وكان العامة من الرومان يطلقون لأنفسهم العنان لمثل هذا الصنيع عند موت البابا.

ونلاحظ هنا تشابهًا يستلفت النظر بين الخليفة والبابا، وذلك أن الخليفة فى هذا العصر صار رئيسا روحيا فقط ليس له سلطة سياسية، وصار الرئيس الروحى لجميع المسلمين، وكان تقلص سلطانه عن العراق، حتى لم تبق له إلا بغداد ينازعه عليها المنازعون، مما أسرع فى جعل منصب الخليفة روحيا دينيا. ففى سنة ٤٢٣ هـ

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥.

(٢) كانت نفقات الحضرة فى أيام المعتضد سبعة آلاف دينار فى كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠)، وفى سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م قدر سائر نفقات دار الخلافة مئة وخمسون ألف درهم فى السنة (كتاب العيون ص ٢٠٣ أ).

(٣) المنتظم ص ٧٨ ب.

(٤) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب — ٨٧ أ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٤. ولما مات الراضى أرسل بجكم القائد إلى دار الخلافة، وأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٦)، ولما خلع الوزير فى عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م نهبت داره وأحرقت (كتاب الوزراء ص ٢٩ والمنتظم ص ١٤٠ أ).

(٥) المنتظم ص ١٣٠ ب وابن الأثير ج ٩ ص ٥٥، ٥٦.

— ١٠٣٢ م نزل السلطان جلال الدولة من داره على سكر ؛ وانحدر فى سميرية ، ومعه ثلاثة نفر من حاشيته ؛ وصعد إلى بستان دار الخلافة ، وجلس مع بعض مغنياته تحت شجرة ، واستدعى نبيذاً فشرب ، وأمر الزامر أن يزمر ؛ وعرف الخليفة ذلك فشقّ عليه وأزعجه ، فأرسل للسلطان قاضيا وحاجبا فقالا له : إن النبيذ والزمر مما لا يجوز فى هذا الموضع على مقربة من الخليفة ؛ فلم يقبل كلامهما ، ولم يمتنع ؛ فتغيّظ الخليفة ، وأرسل له كلاما غليظا ، وأفهمه أن هذه السيرة تشين الخلافة ، وهدّد بمفارقة البلد ؛ فحضر الوزير واعتذر[1] ؛ على أن الدور الذى كان للخليفة فى هذه العصور الأخيرة كان بسيطا ، لا يشبه منصب رئيس الكنيسة ؛ إذا قورن بإمبراطور بوزنطة الذى كان يُحَيّى فى ميدان الألعاب بوصف أنه داود الثانى أو الرسول بولس الثانى ؛ وكان يُحتفى به كما يحتفى بكبار القسس ؛ وكان يمضى يومه بين الكنائس والمذابح وصور القديسين ، كما يدلّ على ذلك كتاب De Caerimoniis

(١) المنتظم ص ١٨٠ آ — ب .